

قصة

الذهبية المهجورة

كانت ليلة صيف يتهدفها الجو ويصعد زفرات حارة . وحين فتحت « وسيلة » هانم عينيها كان زجاج المشرف يعكس على طنافس « الصالون » بقية من ألوان الشفق الاسيف . وابتدأت لجج الدجى تفيض في سماء صافية وتنسال في أفق « الصالون » وكانت جالسة على اريكة وثيرة معتمدة رأسها الجميل بيدها الناعمة .

كانت منفردة يبدو على وجهها الشاحب اثر الحزن الكمين . وما أشد ما يكون الحزن احياناً في بيئة منعمة .

قصر بديع على ضفة النيل تحتضنه الاغصان وتحيط به حديقة منسقة . وداخل مؤثث على احدث طراز ومعمور بكل أنواع الرفه ولكن ذلك المغنى الفاتن كان يضم قلباً في حداد هو قلب « وسيلة » هانم

لم يكن يوم العام الثاني على زواجها حتى نشبت الحرب اللبنانية . وكان رفيق بك ، زوجها ، من الضباط السابقين في الجيش العثماني . فلم يجد بداً من السفر الى ميدان القتال .

لم يوفقا الى السعادة في زواجهما . كان رفيق بك شديد الغيرة . وكانت « وسيلة » هانم تأبى الا ان تكون صاحبة الارادة .

كان يندران يوماً دون نزاع . وكانت طبيعة رفيق بك العسكرية تمنعه من الخضوع . وكان حبه القوي لو وسيلة هانم يدفعه الى أشد حالات الاحتياج . حب تمكن في فؤاده . واستحال بعد زواجه الى غيرة لا تطاق .

كانت الغيرة تقتك بقوة ارادته وتقضى على طبيعة ضبطه لعواطفه . كان يغاران يرى وسيلة هانم تطل من النافذة ويغار اذا رآها تحدث الخادم حديثاً لا يسعه . ويدرك مزاجه ويحتاج اذا رآها في الحديقة . ويثور اذا خرجت لزيارة دون علمه . كانت وسيلة هانم تعلم ان غيرته نتيجة لحب شديد يجنلها . غير أن اعتيادها الحرية ،

وعرفانها ان زوجها لا يملك غير بذلك العسكرية في حين انها صاحبة ايراد ضخمة ، وأنه قد بلغ العمر الذي لا يستطيع أن يتبادل فيه مثل حبه . خمسين عاماً وهي بعد في الثلاثين . وانها لم تكن تميل الى الزواج لولا ضغط ابيها ولولا ما لاحظته من صدق عواطف رفيق بك ... وشاءت الطبيعة ان تتركب « وسيلة » هانم في أحسن صورة . المال والجمال في حوزتها . واما « هو » ، فخشن عنيف لا يملك شيئاً . اذن يحق لها ان تكون صاحبة الارادة . وأصرت « وسيلة » هانم على ان تقيد علاقاتها الزوجية بهذه القاعدة .

وظلت الغيرة تسمم حياة رفيق بك . ولما طال النزاع ساء ظن « وسيلة » هانم ولم تعد تعزو غيرته الى شدة حبه . وغالباً لا يتقى وصول الغيرة بالتدريب حد الاهتمام كذلك حدث اكثر من مرة أن استبدل رفيق بك خدم القصر بلا مبرر . وكان بدافع الغيرة يختار من بينهم من يثق فيه لمراقبة « وسيلة » هانم دون غيرها . وطبيعي أن تحل الظلمة محل النور في ذلك المغني الزوجي .

وما زال رفيق بك فريسة للهواجس ميالا الى الوحدة والاستغراق في التفكير وكان من قبل مرحاً دائماً البشاشة حاضر النادرة . يجمع الى ذكائه وجهاً مليحاً وقواماً معتدلاً في شيء كثير من قوة البنية . قضى في الجيش العثماني عشرين سنة تنقل في خلالها في كل أنحاء الشرق . واشترك في أكثر من معركة لقمع تمرد الوهايين في بلاد العرب . وأخيراً أصيب بجرح في فخذه اضطره الى التخلي عن الخدمة في الجيش واختار الإقامة في مصر .

وعلى ضفة النيل في مغنى أنيق تحتضنه الاغصان عرف « وسيلة » هانم ولم يكن في وسعه أن يقاوم تأثير حسننها . وكان مستعداً بطبيعته لان يخضع لاول نظرة توجه اليه من غانية حسناء . وقد عاش عشرين سنة في حياة عسكرية منعزلة عن الاجتماع وعن الخلطة بالنساء ، وامتازت « وسيلة » هانم بكل أساليب الآسنة العصرية المهدبة . واجتمع لها مع حسننها الفنان ثروة خلفها أب كان من كبار المهندسين .

وقد رزئت « وسيلة » هانم بعد أسبوع من زواجها بوفاة أبيها الشيخ . وكان عوناً ثميناً لرفيق بك في كل شكاية يدعيها بدافع الغيرة . وكانت « وسيلة » هانم تنزل

على ارادته برغم ما نشأت عليه من حرية الطبع ، واستقلال الرأى ، وهى وحيدته
التي ألقت أن تختار وأن تريد اولا يحول دون ارادتها حائل .
غير أن زوجها جاء على تقيض طبعها . طبيعة معادية كل العداء لما جبلت عليه
من حرية الخلق . كانت خشونة رفيق بك الملطفة بعواطف قلبية حارة تصطدم
بظرفها الطبيعى ، وكانت تجرح لينها وتؤثر بشدة في نعمة تدللها .

وما زالت إلهة العيرة تقف بينهما موقف الحسود يحول دون سعادة متحابين حتى
ذبلت زهرة الحب وانقصف غصنها . وبقي رفيق بك لا يغادر القصر الا لسكى يجلس
منفرداً مهموماً ذاهلاً عن نفسه . وظلت وسيلة هانم لا تخاطبه الا بقدر وبأشد الحذر .
أيام مريرة كابدها ذلك الزوج قبل سفره الى ميدان القتال وكان يوم توديعه
لو سيله هانم على ظهر الباخرة مغموراً بتسكاب من الدموع الحارة . دموع
رجل عسكرى استحال أمام تمثال الجمال الذى يعبد الى طفل عزيز مسترسل فى البكاء .

ومن بعد رحيله لم يتبدل جو الحياة لو وسيلة هانم . صارت تنعم بكامل حريتها
دون أن يكمل استمتاعها بتلك الحرية . وفى الحقيقة ان المرأة لا تستطيع أن تستمتع بالحرية
الا تحت رعاية الرجل . من أجل ذلك لم تلبث وسيلة هانم ان احست بانها أسيرة
لوحدة .

وكانت همومها أقوى من الترف ومن زينة الحياة . وان غيرة رفيق بك المقرونة
بالنزاع لا تخلو من متاع : هو الحب .

وتماذى بها الهم فضيع منها فضيلة الصبر . وقضى على كل سلوى تجدها فى بحبوحة
النعمة . وما جباها به نصيبها فى الحياة من ثروة ومغنى أنيق وعلاقات رقيقة بالطبقة
الممتازة . وما يطل عليه قصرها من منظر طبيعى يطرد الهم عن النفس . تألف من
ماء وخضرة وأغاريد وظلال وأشعة تبرق على صدر النيل بريق الماس .

ولكن لا النعمة ولا العلاقات ولا الطبيعة استطاعت أن تشرح صدرها . ظلت
أسيفة لا يفارقها الضجر . وكانت تحمل — برغم زواجها — قلباً لم يرو غلته من
معين الحب وتعيش بعواطف لم تشبع بعد من نهلة التبادل .

وساورتها الهواجس ولم تعد تقاوم الاستغراق في التفكير

.....
في تلك الليلة التي كان يصعد فيها الجو انفاساً حارة فتحت وسيلة هانم عينيها في ظلام
مجيم على سماء الصالون، وكانت قد استغرقت في التفكير والذكرى حتى استحال رأسها
المتوج بالكلاب يدع من الشعر الذهبي الى لوحة تعرض صور الماضي والحاضر بألوانها الحقيقية
وتليح في خطوط غامضة بصور الغد المستكن في اعماق الغيب وحتى استولي الغمض على
عينيها الزرقاوين، بينما كانت اهداب الدجى تنعقد على سماء مخضبة بدماء الشفق.

وتلاطمت امواج الليل في سكون ولم يعد يسمع للطبيعة النائمة خفيف ولا تغريد
ولا حركة مجذاف تضرب صدر النيل الجاري في مثل عمق الليل من تحت شرفة القصر.
كانت نفسية الطبيعة في تلك الليلة متفقة بالمصادفة مع نفسية وسيلة هانم اظلال اسيفة
واشباح ساكنة ونهر بلا أمواج وجو يتنهد تنهدات ملتبة وليل حالك يضاهي النهر في
عمقه.

ودخلت الخادم وحركت الزر الكهر بآى فانبجابت الظلمة عن الصالون فارستها
وسيله هانم ان تفتح زجاج المشرف واذا ذاك وصلت اليها انفاس الجو الفاترة.
ولما انصرفت الخادم نهضت وسيلة هانم متثاقلة كأنها تعبت من الراحة. وكان
قد اضناها الفراغ الطويل.

نهضت واتجهت الى المرأة لكي تصلح من شأنها وتمذب من زينة كما لو كانت تنتظر
مقابلة او زيارة.

وروقت فترة امام المشرف تسرح نظرها في الطبيعة النائمة في الوادى الذي يحتضنه
الجل وتشرى عليه الاهرام. وكان القمر وقتئذ يحاول ان يرحل بنوره عبء سحابة
سوداء.

ثم دقت الجرس الى الخادم وأمرتها أن تعد لها اثوابها وأبدت فجأة رغبتها في الخروج.
وكانت الساعة الثامنة!

ولم تستطع الخادم ان تبدى اية ملاحظة وما ينبغى لها وكانت تعلم من اصرار مولاتها

على تحقيق رغباتها انها لا تبالي بالزمن ولا بالنصيحة. وكان ذلك من بواعث النزاع الدائم بينها ورفقة بك .

ولكن الفضول حمل الخادم مع ذلك الى توجيه هذا السؤال : الى اين يامولاتى ؟ فاجابت وسيله هانم دون اهتمام : الى الذهبية .

فابتسمت الخادم خلسة وكانت تعلم ان مولاتها لم تعرب فى أى وقت عن رغبتها فى زيارة الذهبية . وهى تلك الذهبية التى اهملت على ضفة النيل منذ عشرات السنين . لم يفكر احد يوما فى العناية بها أو الانتفاع منها .

وحمل الفضول الخادم مرة ثانية فقالت . ولكن الذهبية مهملة منذ زمن طويل ولم تلمر احد من الخدم ان يتولى اعدادها لزىارتك . ماذا يكون لو انك يامولاتى لم تجد فيها مجلسا ملائما ؟

فأعرضت عنها واجابتها : لا شأن لك

وتهايت وسيلة هانم للخروج فى هدأة الليل . وامرت الخادم ان ترافقها وظلت تتبع بخطواتها المتوانية ضفة النيل . وكانت مصاييح الغاز الضئيلة النورت تخلل الاشجار الباسقة فى صف طويل ومن ورائها النيل ساكن الصدر .

ولم تلق وسيلة هانم فى طريقها الا بعض القرويين آيين الى بيوتهم ولم تكن مسافة بعيدة بين القصر والذهبية وتكاد تكون شبه امتداد لحديقة القصر .

وبلغت بخطواتها المتوانية مرسى الذهبية . وكانت اخشابها قد تصدعت واداتها مهملة مبعثرة مكسورة الكوات بلا سلم يصعد اليها وكان يبدو ان ليس بها فرش ولا مقعد يمكن الجلوس عليه . وبالاختصار كانت شبه ضريح سابح فوق صدر النيل . وكانها قطعة مختزلة من هيكل العزلة راسبة فى معين من الهجر ؟

كيف شاءت وسيله هانم ان تزور فى وحشة الليل ذلك البيت الخرب ! وقفت تصافح بنظرها الذهبية المتصدعة ومن خلفها الخادم كأنهما فى موقف حداد فيه من ظلمة الليل ومن سكون الطبيعة ومن اعتلال انفاس الجو ما يتفق وروح الاسى البادى على الذهبية المهجورة . الذهبية المنعزلة الخاوية على ضفة النيل الهاجع .

ولم يمض وقت قصير حتى اقبل نحوهما رجل معتدل القامة وجهه الطلعة لم تتبين الخادم
ملاح وجبه لاول وهلة ولكنها رأت فيه شيها لمولاه رفيق بك .

وتقدم الرجل الغريب بجرأة مبتسما وبسط يده لمصافحة وسيله هانم . واذ ذاك
ابصرت الخادم انه صورة اخرى لمولاه لولا انه ذو لحية مهذبة جميلة .

وقد صافحته وسيله هانم بلا كلفة واخذت يده كأن معرفة سابقة بينهما منذ زمن
طويل . ولم تعلم الخادم ان مولاتها اقارب أو أصدقاء تقابلهم تحت جناح الليل . كانت
تعلم ان خروجها من القصر غير مباح الا باذن وأن الحصول على ذلك الاذن كان صعبا
عسيرا . واحيانا كان مستجيلا دون نزاع وشجار بينها وبين رفيق بك .

وساورت الظنون الخادم حين رأت مولاتها تمشى مع ذلك الرجل الغريب جنبا
الى جنب . وحين رأتهما يتساران .

وكانت وسيله هانم لا تبعد عن الذهبية في سرارها مع ذلك الغريب الا لكي تمسك
بيده وتعود به الى موقعها الاول .

وجعلت الخادم تتبعهما بنظرها تراقب كل حركة وكل اشارة تصدر منهما . وقد أذهلها
مسلك مولاتها . وساءت ظنونها . ولم تعد تذكر من تاريخ وسيله هانم العفيفة الا
موعدا تحت جناح الليل مع رجل غريب . ولم تعد تذكر من أفعال مولاتها الكريمة
السخية ، الا انها خانت زوجها الذى سافر لكي يدافع عن بلاده .

وطال السرار بينهما فى سكون الليل على كسب من الذهبية المهجورة . وكانت انفاس
الهواء قد بردت وابتدأت تحرك اغصان الشجر . وتموجت الظلال السوداء تحت ضوء
القمر الساجى .

ولبثت الخادم منصوبة كالناطور تراقب حركات العشيقين .

وأخيرا أمسك الرجل المجهول بدوره يد وسيله هانم ووقف بها أمام الخادم وكان
قد انتهى السرار بينهما

ولم تستطع هذه الاخيرة ان تبين ملامحه تحت ضوء القمر . وما كان اشد دهشتها
حين لمحت الشبه التام بينه وبين مولاه رفيق بك .

وكانت وسيله هانم تحادثه بمودة ظاهرة . وقد رأتها يقبل يدها كأنها تعرفه من

زمان طويل . وحتى وهمت الخادم انه مولاها قد اختار ان يترك لحيته .

ولاحظت انه حين افترق منها حلق فيها بنظر حاد وبدرت منه حركة عصبية لم تلحظها وسيلة هانم .

وحاولت الخادم بلا جدوى ان تعرف شخصية الرجل الذى تتواعد معه مولاتها فى غياب زوجها . وقد وقفت امامه ووجهها لوجهه دون ان تجرؤ على بادرة فضول او حركة استطلاع ووقفت ساكنة وقد جبن قلبها وانكش حتى لم تعد تملك أمام الرجل المجهول الوقوف فى حالة عادية .

وصاغت وسيلة هانم رفيقها ايداناً برغبتها فى الرجوع الى القصر فقبل يدها للمرة الثانية التى لفقت وجهها وأحمر وجهه وسيله هانم وانصرف الرجل المجهول منسلا بين الاشجار . وعادت الخادم تتبع مولاتها فى الطريق المؤيدة الى القصر ، وقد أطرقت وسيلة هانم برأسها مفكرة . وعلمت انه ليس ثمة بد من اجابة الخادم على سؤال قد يصدر منها بدافع الفضول . وفى الحقيقة أنها لم تبعد الا قليلا عن الذهبية المهجورة حتى اقتربت منها الخادم وقالت :

— ما أشبه ذلك الرجل بمولاي رفيق بك لولا لحيته !

فأجابت وسيلة هانم مبتسمة وكأنها فى نشوة من لقاءها برفيقها المجهول — لعله هو ! —

— كلا . . ولكنه وجهه الطلعة مثله . وأشد شبا به من شقيق . . !

— هو زميل رفيق بك فى الجيش . جاء ليخبرنى بأن زوجى قد يبقى فى تركيا

الى فصل الشتاء .

غير أن فضول الخادم لم يقتنع وبقي متعطشا الى جواب أكثر اقناعاً .

فاندفعت بغريزة حب الاستطلاع وكشف الاسرار المعهودة فى الخدم وقالت —

ولكنك يا مولاي لم تشيرى الى هذه المقابلة حين رغبت فى زيارة الذهبية .

أجابت وسيلة هانم فى تأفف ظاهر — لا تسألنى أكثر من ذلك .

فلازمت الخادمة الصمت ولكن برغمها !

• ترى هل كانت مقابلات سابقة بين وسيلة هانم وبين الرجل المجهول قبل هذه

الليلة ؟ ، هذا ما جعلت الخادم تفكر فيه بعقلها الضيق . واجتهدت في أن تتذكر شيئاً ينم عن خروج مولاتها سرّاً من القصر فلم تهتد ، فحدثت نفسها بأن من الممكن أن يكون أحد الخدم على علم بشيء من سر هذه المقابلة الليلية .

ولما عادت ومولاتها الى القصر دخلت وسيله هانم تَوّاً إلى غرفة الزينة وأغلقت الباب من خلفها وكانت المرة الاولى التي رغبت أن تخلع فيها ملابسها بمفردها فانصرفت الخادم من بعد أن أضاءت الثريات .

ولم يكن في وسعها أن تكتم عن سائر الخدم ما جرى على كسب من الذهبية المهجورة الا أنها لم تجد من بينهم أحداً يعلم شيئاً عن علاقة صاحبة القصر بذلك الرجل المجهول ، ولما علم الخدم أنه يشبه مولاهم الغائب شاقهم أن يروه ، وضحك البعض من ذلك حين ذكروا غير رقيق بك وثوراته الجنونية .

• مقابلة سرية لوسيله هانم في الظلام عند الذهبية ! •

كان هذا موضوع حديث طويل لخدم القصر مجتمعين في الطابق الأسفل . بينما كانت وسيلة هانم قد لجأت إلى خدرها وفتحت نافذته المطلة على النيل وجلست تفكر وتحلم وقد رطب الليل الهواء ، وتحركت الاغصان في الحديقة حركة حزينة ، وكأن السماء والماء والأرض والأشجار وقشذنبيل صمتا ، سكون عميق ساد الطبيعة ، وكانت أهداب الظلام الطويلة الحالكة تتدلى كأشباح الشياطين في الأفق ، ولم يكن هناك من شيء حتى متحرك في الطبيعة الساكنة الا فؤاد وسيلة هانم .

فؤادها الذي تملكته الحيرة - حيرة الزوجة التي انقادت الى الغواية - حيرة مقرونة بالوجل وبكيت الضمير

ولقد كان سر هذه الغواية مكتوماً فانفضح أمام الخادم ، وانه سوف ينفضح أمام الآخرين مقدار ما يكون ميل الخادم الى النسيمة .

و ندمت وسيله هانم على أنها رافقت خادماتها الى موعد الذهبية المهجورة ، وتطلعات الى السماء بعينها الزرقاوين الصافيتين كأنها توحى اليها بسرهما المكنون . سر ذلك الموعد الذي ارادت ان تروى به ظمأ قلبها الى الحب .

ولكن متى كان تعرفها على ذلك الرجل المجهول ؟ وكيف ابتدأت العلاقة الغرامية بينهما ؟

بقى ذلك سر مكتوم الى أن ذهبت ذات ليلة برفقة الخادم الى موعد آخر امام
الذهبية المهجورة وهناك اقترب شبيه رفيق بك من وسيلة هانم وقد احمر وجهه وحدث
في الخادم بنظر حاد وبدرت منه الحركة العصبية عينها ثم وضع يده فجأة على لحيته
وانزعجها بخفة والتفت الى وسيلة هانم.

عند ذاك صاحت وسيلة هانم صيحة فزع وسقطت مغشياً عليها .
واستولى الرعب الخادم التي تحقق حساباتها في أن الرجل للغريب مولاها رفيق بك .
وانكشف لها سر الفصل المحزن الذي مثل أمامها .
ووقفت جامدة لا تستطيع حراكاً ، وبقيت وسيلة هانم ممددة على الأرض
في غيوبة .

وكان الطبيعة أرادت أن تسدل على هذا الفصل الدرامي ستاراً يخفيه عن الانظار
فاحتجب القمر من خلف السحاب .
وبدا كأن المصاييح قد تضام نورها وان الظلام قد ناء بكلكله على الوجود .
ولو أن وسيلة هانم خيرت في هذه الحالة لاختارت ان تظل في غيوبتها عاما !

كان الرجل المجهول رفيق بك نفسه عاد من ميدان القتال متكرراً وأراد بدافع
الغيرة أن يخبر وفاء زوجه
ولم يكن يجهل أنها تزوجته أول الامر نزولا على ارادة أيها . وعبثا حاول أن
يتحمل باقوة حبه على ان تبادله مثل عواطفه وبقيت علاقاتها الزوجية معه بالعقل
لا بالقلب .

وظل فؤادها بعد الزواج متعطشا الى الحب . الحب الذي كانت تستطيع ان تبادله
بزوجها لكي تسعد أيام حياتها .

وقضى حظ وسيلة هانم التعس ان تعيش بلا رشد من بعد زيارتها للذهبية المهجورة

وكانت في جنونها تحدث نفسها كل من رأت بقصة حبها للرجل الثاني. . . وكانت تنكر
انه رفيق بك. انها كانت تقول: هبطت حديقة القصر في اصيل يوم دون أن يحس بها
بها الخدم. «فأنت» الرجل الثاني، يرود حول السور فلم تتردد في سؤاله عن غرضه. واذ
ذلك عرفت انه صديق زوجها جاء لينبئها بان رفيق بك سيقى في تركيا طول فصل الشتاء.
وكان ما كان على اثر تلك المعرفة.

معرفة «الرجل الثاني»! وبقيت «وسيله» هانم في ذهنية اخرى مهمجرة ولكن في قصر
فخم. بقيت «وسيله» هانم الحسنة الرقيقة المتظرفة حبيسة في القصر الذي كانت لا تخطر فيه
إلا لكي تثير الاعجاب فاصبحت تثير الالاسى والرتاء. بقيت شهيدة زيارتها للذهبية المهجورة



المتلة الاولى — انت اتجاوزت تانى
، الثانية — من زمان
، الاولى — اسمه ايه جوزك الجديد
، الثانية — والله نسيت — ولكن الكرت معاى
في الشنطة